

الإيمان الحق

أخى :

بالله عليك اسمع منى . أرجو أن يعلم الأخ أن الإيمان إذا دخل القلب ، وسكن الفؤاد ، وتخلل المشاعر والوجدان ، وتعمق تفكير المؤمن وترى صار غريزة أصلية ثابتة بثبوت الغرائز البشرية التى لا انفكاك عنها ولا مفر منها . وأحسبه يكون أقوى منها بمقتضى بقاءه ودوامه ، وعليه تكون حياة المؤمن متعلقة به ، مشمولة بظله سارحة بأسبابه ودواعيه . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؛ ولأنه إيمان بالعلی فإنه يعلو بصاحبه ، ويعلو بالغرائز البشرية ، ويعلو عليها بمقتضى القوة والانصاف . فإن فلتت غريزة إلى ما لا تحمد عقباه كبج جماحها وردّها إلى الصواب بقوة وعنق ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ولأنه إيمان بالعظيم فإنه يعظم صاحبه ، ويعظم على الغرائز كلها بحيث تكون أعمال سائر الغرائز صغيرة حقيرة رغم ما لها من قوة التغلب على الإنسان فى بعض الحالات . فإن كل ما دون العظيم حقير ذليل . ولما كان الأمر كذلك كان التقرير الحق : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم أى لا قدرة ولا محاولة إلا بالله الرب الخالق . النافع . الضار . المحيى . المميت . الباعث . المهيمن . القابض . الباسط . المعطى . الوهاب . العلى . العظيم بهذه الصفات الذاتية .

أخى :

لقد علمت وفوق كل ذى علم عليم أن الإيمان إذا بلغ حد اليقين تجاوز ذلك إلى مرتبة المشاهدة والمعاينة التى يشير إليها قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وكما قال حاكياً عن الحوارين أنصار الله أصحاب عيسى عليه السلام قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ

الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ
وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿١﴾ فاعلم أخى أن الإيمان إذا بلغ هذا الحد صار قوة تهدّ الجبال ،
وتدك الأرض دكاً وذلك بمعنى التغلب على الطبائع الأرضية والتسيطر على الغرائز
البشرية بحيث يكون سلطانه كاملاً ومباشرته فعالة . وعلى أن هذا هو الحق
﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ وقد علمت أخى أن الإيمان إذا سكن
القلب، وتخلل المشاعر صارت هذه الدنيا الواسعة العريضة أضيق من سم الخياط
بمقتضى انحصارها في أضيق نطاق حيث تحدت الحياة ، وارتسمت الغاية بأجلى
معانيها . فلا نزوع إلا إليه ، ولا استقرار إلا به ، ولا راحة إلا معه .

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : كيف أصبحت يا حارثة ؟ فقال
أصبحت مؤمناً . قال ﷺ : وما علامة إيمانك وحقيقته ؟ فقال لقد عزفت
نفسى عن الدنيا فأظلمات نهارى وأقمت ليلى ، وكأنى أرى عرش ربي بارزاً .
وكأنى أرى الجنة وأهلها يتزاورون فيها . وكأنى أرى النار وأهلها
يتعاورون فيها . قال رسول الله ﷺ الآن : يعنى أصبحت مؤمناً أو كما قال .
فكيف لا تضيق الدنيا برجل هذا حاله . فوالله إنها تصير أضيق من سم
الخياط . وقد قال شيخنا وإمامنا السكندرى رضى الله عنه : إذا أشرق نور
اليقين فى القلب رأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها . فوالله لقد صدق .
ومن ذاق عرف .

أخى :

إن الإيمان إذا وفر فى الصدر صارت الموقورات البشرية كلها فى صدر
الإنسان تحت سيطرته ومباشرته فلا تتحرك غريزة واحدة إلا بإذنه وإعلامه .
وهذا معنى (الكُتْبَةُ) التى أشار إليها الحديث القدسى (كنت سمعه ، وكنت
بصره ، وكنت فؤاده إلخ) الحديث حيث قلبه هو المالك المسيطر على الأعضاء
والجوارح ، وهو المحرك للغرائز والدوافع . ومن هنا نعلم معنى قوله ﷺ فى
أبى بكر رضى الله عنه : « لم يفضلكم بصلاة وصيام . ولكن بشىء وقر فى
قلبه » أو كما قال . فالإيمان كالعملة التى تُعقَد بها الصفقة وتقضى بها الحوائج

وتشتري بها المطالب فمن دخل السوق وهو فارغ منها لا يخرج من السوق بشيء مع وجود الإستشراف والرغبة إلى ما في السوق من حوائج . وهذا شأن الإيمان في عقد الصفقات الأخروية ، وفي الظفر بالمطالب الروحية . فإنه على قدر قوة الإيمان يكون الربح الذى يكون على قدر العرض والطلب فابحث عن الإيمان أولاً فإنك إذا ظفرت به هان عليك الصعب ، وسهل عليك التعب ، وقد علمت أنه يكون بالتدرج فليكن يومك خيراً من أمسك ، وغدك خيراً من يومك حيث لا نهاية للمراحل الإيمانية ولا حصر للهداية الربانية فمن مرحلة إلى مرحلة ، ومن هداية إلى هداية حتى تلقى ربك . ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ .

أخى :

إن العمل القليل مع الإيمان الكامل يبلغ بالموثمن أعلى الدرجات ، ويصعد به فوق السموات . ﴿ إِلَهِهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ فبالكلم الطيب القرب ، وبالعمل الصالح ترفع الدرجات . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ فإذا أراد الأخ أن يعرف الإخلاص ومعناه ، والصدق وفحواه معرفة صادقة أكيدة ليعرف بها حاله مع ربه وخالقه ، وليوازن بها ما يضدر منه إلى مولاه فليتنظر إلى نفسه حين يقبل بها على شهواته وحظوظه . كيف يكون الاتجاه والحساب من يكون الحرص على تناول . فالطعام مثلاً نقبل عليه لنأكل منه ، والغرض من الأكل إشباع غريزة الجوع . وفى هذا الفعل صورة الإخلاص ومعناه . ولكن للنفس . فعلى هذا القياس تكون المهمة بالإخلاص فى العبادات والطاعات . والإخلاص هو أن يكون العمل الصادر منك مقصوداً به وجه الله ومرضاته بحيث يكون حظك منه محصوراً فى طاعته وعبادته وأن يكون العمل مطابقاً لأمره وحكمه . وهذا أول درجات الإخلاص . وبعد ذلك كثير وكثير .

وإجمالاً أقول : إن الإخلاص توحيد المطلوب والصدق ، وتوحيد الطلب . وفرق بين هذا وذاك .

أخى :

اعلم أن الإيمان منازل ودرجات . ولذلك لا يخلو منه مؤمن ، وربما لا يخلو منه إنسان حيث الكل يؤمنون بالله رباً وخالقاً قديراً نافعاً ضاراً . أما الإيمان الذى نتحدث عنه فهو الإيمان الشامل لصفات الله عز وجل . الإيمان برسوله صفة ومعنى . الإيمان بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً كاملاً . الإيمان بكل ما أنزل الله فى كتابه وما جاء به الرسول ﷺ من عنده بحيث يكون الشعور يقيناً ، والإحساس قريناً . أما الإيمان المنقطع فإنه لا يبلغ بصاحبه درجات اليقين . ولذلك يتخبط ، فتارة يصيب ، وتارة يخطئ بينما تراه مؤمناً . وبينما تراه كافراً ، وتارة تراه صديقاً وتارة تراه زنديقاً . فإنك ترى الرجل متى حين يأتى وقت الصلاة يفزع إليها حرصاً عليها فيؤديها بمقتضى إيمان صحيح خاص بالصلاة . ولكن بمجرد الفراغ منها يكون على غير ما كان عليه من الإيمان بسائر العبادات والمعاملات . وكأن الذى فرض الصلاة عليه غير الذى فرض عليه سواها من العبادات والمعاملات . أفليس الإيمان واحداً وبواحد ! فعلام هذا التغير والتحول ؟ وعلام هذا الإيمان ساعة والكفر ساعات نعم الإيمان واحد . والمؤمن به وهو الله واحد . ولكن درجة الإيمان ضعيفة .

أخى :

إن الإيمان كالصحة للبدن ، والعافية للجسم . فإذا كانت الصحة سليمة ، والعافية تامة يستطيع الإنسان أن يؤدي واجبه على الوجه الأكمل من حركة ، وسكون ، وإقبال ، وإعراض فلا يصعب عليه شيء مما هو فى مقدوره ، ولا يقصر عن إتيان ما هو فى حاجة إليه من أسباب حياته . وكذلك الإيمان إذا اكتمل فى القلب يكون أثره فى الأعمال كأثر الصحة فى البدن ، والعافية فى الجسم وحين يكون ضعيفاً ينحصر فى الإقبال على الطاعات والعبادات التى لا تكلف صاحبها جهداً ولا بذلاً ؛ فيصلى كيفما اتفق ويصوم كيفما يكون ، ويبادر إلى الشكليات من العبادات توقفاً منه وتخيلاً حيث يصور له الشيطان بأنه لم يدغ شيئاً ، وأنه على أحسن حال ، وأنه خير ممن هو سواه ممن لا يصلى ولا يصوم : إلخ ما هو معروف من إغواء الشيطان اللعين .

أخى :

إن الإيمان هو التصديق الصحيح ، وعلى قدر التصديق يكون التحقق .
والتَّحَقُّقُ معناه : التلبس بمقتضيات التصديق . فمن زعم أنه مصدق طولب
بالتَّحَقُّقِ . فإذا لم يكن منه ما يؤكد التصديق وقع الشك عليه فيما يدّعيه .
وإن أردت المزيد فأقرأ خواتيم سورة البقرة ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ
رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ .. ﴾ الآيات .
